الشروط الخمسة

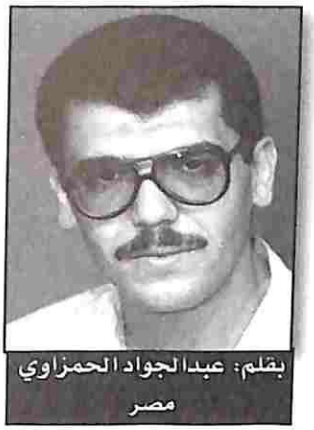

بقلم: عبدالجواد الحمزاوي
مصر

في أحد شوارع بغداد، كان هناك رجل يسير.. مورد الخدين، كان ذا لحية خفيفة تأنق الحلاق في تهذيبها وتشذيب شاربه.. كانت الشمس ترسل أشعتها على عمامته المصنوعة من الحرير الخالص فتبرق.. في الناحية الأخرى من الشارع، كان هناك شيخ كبير يجلس على الأرض.. ثيابه مرقعة وكذلك عمامته الناصعة البياض.. يسرع ذلك الرجل الشاب إلى حيث يجلس الشيخ الكبير.. ينظر إلى وجهه المشرق ولحيته البيضاء التي تملأ وجهه كله ويقول في نفسه «هذا هو إبراهيم بن أدهم.. كيف استطاع أن يترك قصر أبيه مع كل ما فيه من متع وترف إلى هذه الحياة الفقيرة البائسة ؟!! والأعجب من ذلك، أنه يبدو سعيدا راضيا.. عسى أن أجد عنده حلا لمشكلتي..».

عندما وصل ذلك الرجل إلى الناحية الأخرى من الشارع أبطأت خطواته.. بحذر يتقدم من إبراهيم بن أدهم ويقول..

- السلام عليك يا أبا إسحاق؟..

إبراهيم بن أدهم يرفع إليه رأسه ويقول..

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته..

ذلك الرجل يقف قدام إبراهيم بن أدهم صامتا.. يريد أن يتحدث ولكن لسانه لا يطاوعه، بعد برهة استطاع أن يخرج كلمات من فمه.. بطيئة.. متعثرة وقال:

- يا أبا إسحاق.. إني رجل أحب أن أتمتع بكل ما في الدنيا من متع وترف، وقد آتاني الله مالا واسعا عريضا.. وجسدا قويا صحيحا.. ونفسا ذواقة، لذا تراني أسرف في عبِّ هذه المتع عبا ولا أستطيع الصبر عنها.. وقد أقترف بعض المعاصي..

يسكت الرجل قليلا ثم تتدفق الكلمات من فمه في ضراعة ويقول:

- ولكني والله مؤمن بالله.. أخاف جهنم.. فهل تستطيع أن تدلني على شيء أفعله حتى أنجو من غضب الله ومن نار جهنم ؟..

ينظر إبراهيم بن أدهم إلى الرجل في حب وإشفاق.. يدقق النظر في وجهه المكتنز القوي، وثيابه الفخمة الغالية.. يفحص كل شيء فيه، ثم يبتسم ويقول:

- اجلس بجانبي حتى نتحدث معا..

يلملم الرجل أطراف ثيابه.. يخرج منديلا من بين ملابسه ثم يفرشه على الأرض ويجلس.. تتسع ابتسامة إبراهيم ابن أدهم ويقول:

- عندي - إن شاء الله - دواؤك.. سأعرض عليك خمسة أشياء، إن استطعت أن تفعل واحدة منها فلن تضرك معصية أبدا مهما كانت..

الرجل يبتسم.. تتسع ابتسامته حتى تملأ وجهه كله.. على أنغام اللحن الجديد الذي صنعته له جاريته الرومية الحسناء، يرقص قلبه.. يردد اللحن في نفسه ويبتسم.. كانت ليلة سعيدة من لياليه الكثيرة..

مغنية ماهرة.. أصحاب موافقون وشراب معتق.. سهر مع اللحن إلى قبيل الفجر، وحينما استيقظ صلى الصبح مع الظهر مع العصر..

أخذ الرجل ينظر إلى إبراهيم ابن أدهم ويقول في نفسه «خمسة أشياء.. خمسة أشياء فقط !!... نعم.. سأفعلهاجميعا ولن تضرني المعاصي أبدا.. كنت أظن أنه سيعظني لأمتنع عن المعاصي... هـا.. ها.. ها..».

أخيرا قال الرجل وهو يضحك..

- موافق.. فما هذه الأشياء الخمسة التي تريدني أن أفعلها؟

تحول الرجل إلى أذن كبيرة في

انتظار ما يقوله إبراهيم بن أدهم.. بعد ثوان قليلة قال إبراهيم بن أدهم:

- إذا أردت أن تعصي الله فلا تأكل رزقه..

بهت الرجل من كلام إبراهيم بن أدهم.. تبخرت فرحته تماما.. بأعلى ما يستطيع من صوت صرخ..

- فمن أين آكل ؟.. أنت تعلم أن كل ما في الأرض من رزق الله..

- أفيحسن بك أن تأكل من رزقه وتعصيه..

كان إبراهيم بن أدهم يقول هذه الكلمات بصوت خفيض عميق.. أحس الرجل بأنه يصغر ويتداخل في نفسه.. فارت نفسه ثم هدأت.. كان ينظر إلى الأرض ويقول في نفسه..

«نعم.. صدق إبراهيم بن أدهم » إنه والله لسوء أدب.. إن مملوكي لا يستطيع أن يعصيني لأنني أحسن إليه قليلا، فما بالي بالله الذي رزقني هذا الرزق الواسع والجسد القوي والعافية التامة.. لكن.. لا.. لا.. إن إبراهيم بن أدهم قال: إنها خمسة أشياء.. أستطيع أن أفعل واحدا منها فأنجو من عذاب الله ولا تضرني المعاصي أبدا مهما كانت».

صاح الرجل:

- دعك من هذا الشرط وهات لي الشيء الثاني..

ضحك إبراهيم بن أدهم ضحكات خفيفة ثم قال:

- إذا أردت أن تعصي الله فلا تسكن شيئا من بلاده..

لم يستطع الرجل أن يظل جالسا.. انتفض واقفا وهو يصرخ..

- إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما لله، فأين أسكن إذن ؟!!.

انتظر إبراهيم بن أدهم قليلا حتى هدأت ثورة الرجل ثم قال:

- أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه ؟..

جلس الرجل على الأرض كأنما وقع.. ينظر إلى إبراهيم بن أدهم ويتفكر في كلامه «نعم.. آكل رزق الله وأسكن بلاده ثم أعصيه.. هذا لا يحسن بعاقل ولكن.. إذا لم أستطع فعل هذين الشيئين فقد أستطيع فعل الباقي.. نعم.. إنها خمسة.. فلأتعرفن إذن على الشرط الثالث فقد يكون في إمكاني فعله»..

لم يرفع الرجل صوته هذه المرة.. قال بصوت خفيض..

- ما هو الشيء الثالث يا أبا إسحاق؟.

إذا أردت أن تعصي الله وأنت تأكل رزقه وتسكن في أرضه فلا بأس، ولكن على شرط أن تبحث لنفسك عن مكان لا يراك فيه وأنت تعصيه..

ابتدأت الدموع تغزو عيني الرجل.. على وجهه ارتسمت علامات الخوف من الله.. رفع الرجل رأسه إلى إبراهيم بن أدهم وهو يقول:

- لا تهزأ بي يا أبا إسحاق.. كيف أستطيع هذا وهو - سبحانه - لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء؟.. كيف أفعل هذا وهو مطلع على ما في العقول والنوايا والصدور ؟!!..

هنا، جاء الدور على إبراهيم بن أدهم ليرفع صوته.. صاح في الرجل غاضبا..

- فهل يجوز أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك ؟.. أين الحياء؟!!..

ظل الرجل جالسا على الأرض مطرقا رأسه.. كان يستغفر الله ويتفكر في كلام الشيخ الجليل.. طال الوقت ولم يفتح فمه بكلمة.. أخيرا نظر إليه إبراهيم بن أدهم وقال:

- ألا تريد أن تعرف الشيء الرابع ؟

رفع الرجل رأسه ولم يتكلم.. كان يريد أن يعرف فقد يكون ممكنا.. أومأ إلى إبراهيم بن أدهم أن نعم.. قال إبراهيم بن أدهم:

- إذا جاءك ملك الموت لقبض روحك فقل له: أعطني مهلة حتى أتوب لله وأعمل عملا صالحا، ثم تعال فاقبض روحي.. فإذا ذهب عنك فاجتهد في العبادة والطاعة حتى إذا ما انقضت المهلة تموت وأنت تائب إلى الله، وبذلك تنجو من نار جهنم..

ارتفع نشيج الرجل واشتد بكاؤه.. كانت دموعه تنزل غزارا تبلل الحصى.. قال من بين أصوات بكائه ودموعه:

- ياليت هذا كان ممكنا.. إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.. يا أبا إسحاق أنت تعلم أن الملائكة لا تعصي الله أبدا، وتفعل ما يأمرها به ربها في التو واللحظة..

اقترب إبراهيم بن أدهم أكثر من الرجل.. ربت على كتفه في حنان وهو يقول:

- إذن فأنت تعلم أنك لا تستطيع تأخير الموت حتى تتوب، فلماذا لا تتوب الآن، وعلى كل إذا فعلت الشرط الخامس يمكنك أن تنجو من عذاب الله.. إذا جاءك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم.. وبذلك تنجو من النار..

ارتمى الرجل على صدر الشيخ الجليل يبكي.. وهو يقول:

- إني أتوب إلى الله من كل شيء لا يرضاه من الآن.. ■